استراحة المسافر (٦)

* صحب طفيليٌ رجلاً في سفر من الأسفار، فقال له الرجل: امض فاشتر لنا لحماً قال: لا والله ما أقدر، فمضى هو واشترى ثم قال له: قم فاطبخ. قال: لا أعرف، فطبخ الرجل، ثم قال له: قم فاثرد. قال: أنا والله كسلان. فثرد الرجل، ثم قال له: قم واغرف. قال: أخشى أن ينقلب على ثيابي. فغرف الرجل، ثم قال له: الآن فكُلْ. قال الطفيلي: قد والله استحييت من كثرة خلافي لك، وتقدم فأكل.
* قيل لطفيلي: كم يساوي اثنين في اثنين؟ فقال: أربعة أرغفة.
* قال داود المصاب: رأيت رؤيا نصفها حقٌّ ونصفها باطل، رأيتُ كأن على عنقي بَدْرة ـ يعني كيس فيه عشرة آلاف درهم ـ فمن ثقلها أحْدثتُ، فاستيقظت فرأيت الحدث ولم أرَ البدرة.

شيخ الحارة:

وهذه إحدى قصائد أحمد قنديل ـ رحمه الله ـ وهي من شعره الحلمنتيشي، وقد نظم هذه القصيدة على لسان الفرزدق فيقول:

قال الفرزدق يمدح شيخ الحارة حينما تجاهله في المطاف أمير العربان السابق:

هذا الذي تعرف البطحاء وطأته ... والبيتُ يعرفه والحلُّ والحرم
والمِسْفلا والنقا، والباب قاطبةً ... والفرد والشون، والليسان والحزم
إذا رأته النشامى قال أجمعهم: ... هذا الذي ردّ أهل الشِّعْب كلهمو
في راحة الكف عُود زقَّرته له ... وما الرِّجال لدى الهوشات واللمم

وفي الصُّبَاع مخاويٌّ له قببٌ ... الكف منه ـ إذا ما ذقته ـ عدم
وبالرّجُول أبوخَرْزين قد رُفعت ... شِراكه وتواطت تحته الرمم
إن صاح ردَّدت الحارات زَعْقته ... وجاوبته عيالٌ، طبعها الكرم
لا يقبلون النَّقيصا، ضد صاحبهم ... والوِلف عادتهم، والعهد والشيمُ
أصحاب أصحابهم في كل نائبةٍ ... فلا تُعَالِم، إذا ما جاء ذِكْرُهُمُ
ففي الحرائق والفَزْعات أجمعها ... هم أهل صيحتها الكبرى، متى علموا
فسائل الشيخ عن أيام عزتنا ... وابرم شواربه الملساء يا بَجَمُ
واسمع حكايته عنا، وكيف جرت ... أو عن بزورة هذا الوقت، كيف هُمُ
واجلس قُبالته، وانظر لِقَنْجتِه ... فبين فَقْشاتها التاريخ مُنسجِمُ
كدا الرجال ولو هانوا ولو نُسيت ... أزمانهم، وتمشى فوقها القدم

ساعة الوداع

أضحى التنائي بديلاً من تدانينا وناب عن طيب لقيانا تجافينا
غيظ العدى من تساقيناالهوى فدعوا بأن نَغَص فقال الدهر آمينا
فانحل ما كان معقوداً بأنفسنا وانبتّ ما كان موصولاً بأيدينا
بنتم وبنا فما ابتلت جوانحنا شوقاً إليكم ولا جفت مآقينا
نكاد حين تناجيكم ضمائرنا يقضي علينا الأسى لولا تأسّينا
حالت لفقدكم أيّامنا فغدت سوداً وكانت بكم بيضاً ليالينا

ما أشق هذه الكلمة على النفوس وما أشد حرارتها في الأفئدة ـ إنها الساعة التي تفترق فيها القلوب المتحابة وينقطع معها حبل الوصل، وأيام الأنس وليالي الألفة.

مَددتُ إلى التوديع كفاً ضعيفةً وأخرى على الرمضاء فوق فؤادي
فلاكان هذا آخر العهد منكمو ولاكان ذا التوديع آخر زادي

ساعة الوداع هي الساعة التي لا تُنسى، واللوعةُ التي لا تبلى، والحرقة التي لا تبرد، نارٌ تُلهبُ الأحشاء، ودموعٌ تُحرق الوجنات، وعيونٌ تنثر العبرات، استمع معي إلى هذه الأبيات وضع يدك على قلبك، واترك النطق لدمعك

فوالله لا أنسى مدى الدهر قوْلها ونحن على حدِّ الوداع وُقوفُ
ولِلنَّار من تحت الضُّلُوع تَلَهُّبٌ وَلِلماء من فوق الخدودِ وكيفُ
ألا قاتل الله الصُّروفَ فإنَّما تفرِّقُ بين الصاحبينِ صُروفُ

هذه هي ساعة الوداع وتلك هي لحظات الفراق، يضعف فيها

الأقوياء، وينهار لهولها الأشداء.

ضَعُفْتُ عن التسليم يوم فراقنا ... فودَّعتُها بالطّرْف والعينُ تَدْمَعُ
وأمْسكتُ عن ردِّ السلام فمن رأى ... مُحباً بطرف العين قبلي يُودِّعُ؟
رأيتُ سُيُوفَ البين عند فراقنا ... بأيْدي جنودِ الشوق بالموتِ تَلْمعُ
عليك سلامُ الله منِّي مُضاعفاً ... إلى أن تغيب الشمسُ من حيث تطلُعُ

ولله در القائل:

ولما وقَفْنا للوداع وقلبها ... وقلبي يفيضان الصبابة والوجدا
بكت لؤلؤاً رطباً وفاضت مدامعي ... عقيقاً فصار الكل في نحرها عقدا

وما أرْوع ما قاله الآخر:

لم يبكني إلاَّ حديث فراقكم ... لما أسرّ به إليَّ مودّعي
هو ذلك الدّر الذي أودعتم ... في مسمعي أجريته من مدمعي

ساعة الوداع أمضىٰ من السيف حسماً، وأوقع من الحمى ألماً. إنها مُفَرِّقة الأصحاب، ومُبَعْثرة الأحباب. فيها تسخو الدموع، وتجود الجفون، وتكتوي الوجنات بحرارة العبرات، فيها يخفق الفؤاد ألماً، وتحترق النفوس ندماً. فيالله كم أحرقت من كبد رطبة، وكم أرهقت من قلب محب، وكم أبكت من مقلة هادئة. كم أضرمت في الأحشاء ناراً، وألهبت في الصدور سعيراً.

إذاأحرقت في القلب موضع سُكْنَاهَا ... فَمَنْ ذا الذي من بعدُ يُكْرِمُ مثوَاهَا؟
وإنْ نَزَفَتْ ماءَ العُيونِ بهَجْرِهَا ... فمن أيِّ عينٍ تأْمُلُ العين سُقْيَاهَا؟
وما الدَّمْعُ يومَ البَيْنِ إلاَّ لآلىءٌ ... على الرَّسْمِ في رَسْمِ الدِّيارِنَثَرْنَاهَا!
وَلَمَّا وَقَفْنَا لِلْوَدَاعِ وَتَرْجَمَتْ ... لِعَيْنِيَ عَمَّا في الضَّمائِرِ عَيْنَاهَا

بَدَتْ صُورَةً في هَيْكَلٍ فَلَوَ انَّنَا نَدِينُ بأديانِ النصارى عَبَدْنَاهَا
وما طَرَباً صُغْنَا القَريضَ وإنَّمَا جلا اليَوْمَ مِرْآةَ القَرائِحِ مَرْآهَا

ساعة الوداع بكى فيها الشجعان، وضعف أمامها الأقوياء، وانهار لهولها الأشداء، واهتزت لها كتائب، وحدث فيها عجائب.

وقفت غداة البين في الكرخ وقفة لها كربت نفسي تطير شَعاعاً
أودّع أصحابي وهم محدِقون بي وقد ضقت بالبين المُشتِّ ذراعاً
أودّعهم في الكرخ والطرْف مرسل إلى الجانب الشرقيّ منه شعاعاً
وأدعم رأسي بالأصابع مطرقاً كأن برأسي يا أمَيْمُ صُداعا
وكنت أظن البين سَهلاً فمُذ أتى شَرَى البينُ مني ما أراد وباعا
وإني جبان في فِراق أحبتي وإن كنت في غير الفراق شجاعاً
كأني وقد جد الفِراق سفينة أشالت على الريح الهجوم شِراعا
فمالت بها الأرواح والبحرُ مائج وقد أوشكت ألواحها تتداعى
فما أنا إلاَّ قوْمة وانحناءة وسرٌّ أذاعته الدموعُ فذاعا
أبيت وما أقوى الهموم بمضجع تصارعني فيه الهموم صراعا
وألهو بذكراهم على السير كلما هبطت وهاداً أو علوت يَفاعا

وقال آخر:

وأتى الرحيل فحين جدَّ ترحَّلتْ مُهَجُ النفوس له عن الأجسادِ
من لم يَبتْ والبين يَصْدع قلبَهُ لم يدر كيف تفَتُّتُ الأكباد

إنها الساعة اللاذعة للنفس، الملهبة للأفئدة، تذرف لها الدموع دماً، وتورث الأكباد حسرة وألماً.

يا راحلاً وجميل الصبر يتبعهُ هل من سبيل إلى لقياك يتفقُ

ما أنصفتك دموعي وهي داميةٌ ولا وفى لك قلبي وهو يحترقُ

في ساعة الوداع يرى المسافر طفله يتململ تململ اللديغ ويترنم بألفاظ الأبوة الحانية ويرى ابنته تعصف بها اللوعة، ويشاهد أمه يعصرها ألم البين، وتكوي فؤادها وحشةُ الفراق ويلمح أباه الشيخ المدنف يحسو كأس الفراق قطرة قطرة.

قالت ابنة وهي تودع أباها:

إذا غبت عنا وخلفتنا فإنا سواءٌ ومن قد يَتَمْ
أبانا فلا رِمْت من عندنا فإنا بخير إذا لم ترم
أبانا إذا أضمرتكَ البلاد نُجفىٰ وتُقطع منا الرَّحِم

رِمت: رحلتَ وبَعُدتَ.

وهناك الزوجة الحنون رفيقة العمر، وسكن الفؤاد تخنقها العبرة ويلفها الأسى ويجتاحها الجزع، تودعه وهي لا تعلم هل هناك من لقاء آخر أم أنه آخر العمر ونهاية الأنس، وخاتمة المودة.

تبدَّت لنا مذعورة من خبائها وناظرها باللؤلؤ الرطب لامعُ
أشارت بأطراف البنان وَوَدَّعتْ وأومتْ بعينيها متى أنت راجعُ؟
فقلت لها والله ما من مسافرٍ يسير ويدري ما به اللهُ صانعُ
فشالت نقاب الحسن من فوق وجهها فسالت من الطرف الكحيل المدامعُ
وقالت إلهي كن عليه خليفةً فياربِّ ما خابتْ لديك الودائعُ

وقال آخر:

قالت وقد نالها للبين أوْجعُهُ والبين صعبٌ على الأحباب مَوْقعهُ
اجعل يديك على قلبي فقد ضَعُفَتْ قواهُ عن حمل ما فيه وأضْلُعُهُ

واعطفْ عليَّ المطايا ساعةً فعسى ... من بتَّ شمل الهوى بالبين يجمعُهُ
كأنني يوم ولَّتْ حسرةً وأسى ... غريقُ بحر يُرى الشاطي ويمنعُهُ

وإذا أردت أن تسمع المحاورة المشجية، والمناجاة المبكية، والآهات، إذا أردت صورة صادقة لجزع الإلْفِ حين يغادر أليفه، ولبكاء الحبيب حين يودِّع حبيبه، فتأمل معي هذه الصورة الصادقة والعبارات الناطقة، التي أجزم أنها سَتَمْلكُ نَفْسَك، وتلهبُ قلبك، وتُسبلْ دمعك.

ما كنت أعرفُ ما في البين من حزنٍ ... حتى تنادوا بأنْ قد جِيءَ بالسُّفنِ
لَمَّا افْتَرَقْنَا على كُرْهٍ لِفُرْقَتنا ... أيقَنْتُ أنِّي قتيلُ الهمِّ والحزَنِ
قامتْ تُودِّعُني والدَّمْعُ يغلبُها ... فجمجَمَتْ بعض ما قالت ولم تُبنِ
مالَت عليَّ تُفَدِّيني وتَرْشُفُني ... كما يميلُ نسيمُ الرِّيحِ بالغُصُنِ
وأعرَضَتْ ثم قالتْ وهي باكيةٌ ... ياليتَ معرفتي إياكَ لم تكُنِ

وقال آخر:

لم أنس يوم الرحيل موقفها ... وطرفها في دموعها غِرِقُ
وقولها والركاب واقفةٌ ... تتركني هكذا وتنطلقُ؟!

ودَّع رجلٌ صديقاً له وهو يقول:

وداعك مثل وداع الربيع ... وفقدك مثل افتقاد الدِّيَمْ
عليك السلام فكم من وفاءٍ ... نفارقه منك كَمْ من كَرمْ

الديم: مطر يدوم في سكون بلا رعد ولا برق.

وقال آخر:

أقول له حين ودعته ... وكل بعبرته مفلسُ
لئن رجعت عنك أجسامُنا ... لقد سافرت معك الأنفسُ

وانظر إلى هذه الأبيات الرائعة للبحتري والتي يعلل فيها سبب هروبه عن ساعة الوداع لأنه يعلم ما تحدثه من ألم ولوعة في قلبه وفي قلب مودعيه فرأى أن يهرب منها رفقاً بالقلوب:

الله جارُك في انطلاقكْ تلقاءَ شامك أو عراقِكْ
لا تعـذلنِّـي فـي مسيـ ـري يوم سرتُ ولمْ ألاقِكْ
إنـي خشيـت مَـوَاقفـاً لِلبيْن تسفح غرب ماقِكْ
وعلمت ما يلقى المودّ ع عند ضمِّك واعتناقكْ
فتـركـتُ ذاك تعمَّـداً وخَرجت أهربُ من فراقكْ

وقال آخر:

أشاعوا فقالوا وقفةٌ ووداعُ وزُمَّتْ مطايا للرحيل سراعُ
فقلتُ: وداعٌ لا أطيقُ عيانَهُ كفاني من البين المُشِتِّ سماع
ولم يملك الكتمانَ قلبٌ ملكْتَهُ وعند النوى سِرُّ الكتوم مذاع

كان رسول الله ﷺ إذا ودَّع رجلاً يقول: «**أستودع الله دينك وأمانتك وخواتيم أعمالك**» [الصحيحة: ١٤].

خرج رسول الله ﷺ يودِّع معاذ بن جبل حينما بعثه إلى اليمن وكان معاذ راكباً على راحلته ورسول الهدى ﷺ يمشي بجواره فلما فرغ من وداعه ومن وصيته له قال له: يا معاذ إنك عسى أن لا تلقاني بعد عامي هذا ولعلك أن تمرَّ بمسجدي وقبري فبكى معاذ جزعاً لفراق رسول الله ﷺ.

[صحيح ابن حبان: ٦٤٧].

ودَّع الصبر محبٌّ ودَّعك ذائعٌ من سرِّه ما استودعك
يقرعُ السِّنّ على أن لم يكنْ زاد في تلك الخطىٰ إذ شيَّعَكْ

يا أخا البدر سناءً وسناً حفظ الله زماناً أطلَعك
إن يطل بعدك ليلي فلكم بتُّ أشكو قصر الوقت معكْ

وهذا شاعر آخر ـ تميم الفاطمي ـ يقدم لنا في صورة رائعة ماتعة تهزّ النفس وتوقظ الإحساس، يقدم لنا صورة عن حالة الوداع وعن شدة ألمها، محاولاً أن يقرب لنا عن طريق المماثلة الحالة التي يكون عليها من ابتلي بفراق أحبته، وإلاَّ فحقيقة الأمر أشق من ذلك وأوجع مما هنالك:

وما أمُّ خشفٍ ظل يوماً وليلةً ببلقعة بيداء ظمآن صاديا
تهيمُ فلا تدري إلى أين تنتهي مولَّهة حيرى تجوبُ الفيافيا
أضرَّ بها حرُّ الهجير فلم تجد لِغُلَّتها من بارد الماء شافيا
فلما دنت من خشفها انعطفتْ له فألفَتْهُ ملهوف الجوانح طاويا
بأوجع منِّي يوم شدَّت حمولهم ونادىٰ منادي الحي أن لا تلاقيا

قال أحد المودِّعين:

بكت عيني غداة البين دمعاً وأخرى بالبكا بخلتْ علينا
فعاقبت التي بالدمع ضنّتْ بأن أغمضتُها يوم التقينا!!

وقال آخر:

عينٌ تُسرُّ إذا رأتك وأختها تبكي لطول تباعد وفراق
فاحفظ لواحدة دوام سرورها وَعِدِ التي أبكيتَها بتلاقِ!!

قال البارودي في الوداع:

يا صاح لو أبصرتَ ما صنع الهوى بأخيك يوم تفرُّق الأظعانِ
يومٌ فقدتُ الحِلمَ فيه وشفَّني وَلَهٌ أصاب جوانحي فَرمَاني
حلوا فأيةُ عبرةٍ مسفوحةٍ ويدٍ تضمُّ حشاً من الخفقانِ

وقال:

محا البينُ ما أبقت عيون المها منِّي ... فَشِبْتُ ولم أقضِ اللُّبانةَ من سنِّي
أهبتُ بصبري أن يعود فعزَّني ... وناديت حِلمي أن يثوب فلم يُغْنِ
ولم تمض إلاَّ خطرةٌ ثم أقلعتْ ... بنا عن شطوط الحيِّ أجنحةُ السُّفْنِ
وما كنتُ جرَّبتُ النوى قبل هذه ... فلما دهتني كِدْتُ أقضي من الحُزْنِ

وداعٌ في محطة القطار

وهذا شاعر اسمه «محمد برهام» يصور لنا لحظات من لحظات الوداع الحرجة وكان ذلك في محطة القطار:

اذكري يوم أن رحلت اذكريه ... لا قضى الله بعد ذلك بينا
يوم كنا على المحطة نبغي ... لو يطول الوقوف ثمَّ علينا
قد أخذنا لنا مكاناً قصياً ... فذكرنا أيامنا واشتكينا
ونخاف القطار يأتي، فنمضي ... ننظر الساعة التي في يدينا
بل خدعنا نفوسنا «ياسعاد» ... وعبثنا بعقَربيْ ساعتينا
نحسب الوقت بالدقيقة حتى ... قدم «القطر» بغتة فبكينا
وتضنين بالفراق، إلى أن ... دق صوت الناقوس في أذنينا
فركبت القطار ثم تهادى ... فحكانا، ونحن نمشي الهوينى
لم يكن بعد، غير بضع ثوان ... واختفيتم عن عيننا واختفينا
افترقنا ولم نبلّ غليلاً ... ولنا اليوم أشهر ما التقينا
لا جزى الله يوم بينك خيراً ... كم أسال الدموع من مقلتينا!

محاورة بين بنتٍ وأبيها المسافر

أشرنا إلى أن من أشد أنواع الفرقة والحرقة هي مفارقة المسافر لأبنائه وبناته، وإليك قصة أخرى من ذلك النوع المحزن من الفراق، وتلك اللوعة من لوعات البعاد.

أنشد الأصمعي لحاجب الفيل اليشكري:

لمَّا رأت بنْتي بأنِّي مُزْمِعٌ ... بترحلٍ من أرضها فمودِّع
ورأتْ ركَابي قُرِّبَتْ لرحالها ... قالت وغرْبُ العينِ منها يَدْمَعُ
أبتَا أتَتْرُكُنَا وتَذهَبُ تَائِهاً ... في الأرض تَخْفِضُكَ البلادُ وتَرْفَعُ
فيَضيعُ صبْيَتُك الذين تَركْتَهمْ ... بمُضِيمةٍ في المصْرِ لم يتَرَعْرَعُوا
فيهمْ صَغيرٌ لَيْسَ يَنْفَعُ نَفْسَهُ ... وصغيرَةٌ تَبْكِي وطِفْلٌ يَرْضَعُ
إنَّا سَنَرْضَى مَا أقَمتَ بعيْشِنَا ... ما كَانَ من شيءٍ نَجُوعُ ونشْبَعُ
والله يرْزُقُنَا فَنَرْضَى رِزْقَهُ ... وكَفَى بحُسْنِ معيشَةٍ مَنْ يَقْنَعُ
إنَّا إذا ما غِبْتَ عَنَّا لَمْ نَجِدْ ... ممَّا تَخَلَّفَ عِنْدنا ما يَنْفَعُ
تَجْفُو موالينَا ويُعْرِضُ جَارُنَا ... وقَرِيبُنَا الأدْنَى يَعِزُّ ويَقْطَعُ
ونَخافُ أن تَلْقَاك وَشْكُ مَنِيَّةٍ ... فيُصيبَنَا الأمْرُ الجليلُ المفْظِعُ
فَنصيرَ بَعْدَك ليسَ يُرْفَعُ بَيْتُنَا ... ويُذِلُّنَا أعْدَاؤنَا ونُضَيّعُ
هذا الرحيلُ وأمْرُنَا ما قَدْ تَرَى ... فَمَتى تَؤُوبُ إلى الصِّغَارِ وتَرْجِعُ
فَخُنِقْتُ مِنْ قَوْلِ الصّغَارِ بَعَبْرَةٍ ... كَادَ الفُؤادُ لِقَوْلِهم يتصدَّعُ
وأجَبتُهَا: صَبْراً بُنَيَّةُ واعْلَمِي ... أن ليسَ يَعْدُو يَوْمَهُ من يَجْزَعُ

وداع وشكوى

وهذه من روائع إيليا أبي ماضي التي يصور فيها ساعة الوداع وألم الفراق:

أزف الرَّحيلُ وحانَ أن نَتفرَّقا ... فإلى اللِّقا يا صاحبيَّ إلى اللِّقا
إن تبكيا فلقد بَكَيتُ من الأسى ... حتى لكِدْتُ بأدْمُعي أن أغرَقا
وتَسعَّرتْ عندَ الوَداعِ أضالعي ... ناراً خَشيتُ بِحَرِّها أنْ أُحرقا
مازلتُ أخشَى البَينَ قَبلَ وقُوعِهِ ... حتى غدوتُ وليسَ لي أن أفْرَقَا
يومَ النوى، لله ما أقْسى النَّوى ... لولا النَّوى ما أبغضتْ نفسي البَقَا
رُحْنَا حَيارَى صامتينَ كأنَّما ... للْهَوْلِ نَحْذَرُ عندَه أن نَنطِقَا
أكبادُنا خَفَّاقةٌ وعيونُنا ... لا تستطيعُ، من البُكا، أن تَرمُقا
نَتجاذبُ النظراتِ وهي ضعيفةٌ ... ونغالبُ الأنفاسَ كيلا تُزْهَقا
لو لم نُعَلِّلْ باللقاء نفوسَنَا ... كادتْ مع العَبَراتِ أن تتدَفَّقا
يا صاحبيَّ تَصبَّرا فلَرُبَّما ... عُدنا وعادَ الشَّملُ أبْهَى رَوْنَقَا
إن كانتِ الأيَّامُ لم تَرْفُقْ بنا ... فَمِنَ النُّهى بنفوسنا أن نَرفُقَا
إنَّ الذي قدَرَ القطيعةَ والنَّوى ... في وُسْعِهِ أن يجمعَ المُتفرِّقا!..

وهذا مقطع من قصيدة بعنوان «الرَكْبُ المسافر» للشاعر عيسى بن علي جرابا:

يا ليلُ أين أحبتي ورفاقي؟ ... أوَغادروا؟ والدمعُ في أحداقي!
يا ليل أين رحيلُهمْ؟ أوَيتركو ... نَ القلبَ يُحرقُ في لظىٰ الأشواق؟
يا أيُّها الركبُ المسافرُ لحظةً ... ضاقتْ بيَ الدنيا، وشُدّ وثاقي

وعلىٰ فمي وقفَ القريضُ كأنما خافَ القريضُ ولم يشأ إرهاقي
والعينُ غامت في رؤاها حين سا ر الركبُ، فيه أحبتي ورفاقي
وتفجرتْ منها ينابيعُ الأسىٰ وتوقد الإحساسُ في أعماقي
العمُر يمضي كلُّه في لوعةٍ وحنينِ مشتاقٍ إلىٰ مشتاق
أستارُ ليل فراقنا قد أُسدلتْ فمتى سيهتُكها صباحُ تلاق؟

بكاءٌ لفراق الحليلة

رائعةٌ من روائع الشعر العربي يبكي فيها الشاعر غربته، ويحن إلى أحبته، ويتأسف على تركه زوجته، يتأوه من مرارة الفراق ولوعة الوداع، ونار الغربة. سافر من بغداد إلى الأندلس طالباً للرزق وقد مات بالأندلس ولم يتمكن من الرجوع إلى بغداد. يقول علي بن زُريق رحمه الله:

لا تعذليهِ فإن العذل يولعُهُ ... قد قلتِ حقاً ولكنْ ليس يسمعهُ
جاوزتِ في لومه حدًّا أضرَّ بهِ ... من حيث قدَّرتِ أن اللوم ينفعهُ
فاستعملي الرفق في تأنيبه بدلاً ... من عُنفه فهو مضنى القلب موجعُهُ
قد كان مضطلعاً بالخطب يحمله ... فضيّقت بخطوب البين أضلعُهُ
يكفيه من لوعة التفنيد أن له ... من النوى كل يوم ما يُرَوِّعه
ما آب مغتربٌ إلا وأزْعَجهُ ... رَأْيٌ إلى سفرٍ بالعزم يجمعهُ
كأنما هو من حلٍّ ومُرْتحلٍ ... موكَّلٌ بفضاء الأرض يذْرعهُ
إذا الزمانُ أراه في الرَّحيل غنىً ... ولو إلى السند أضحى وهو يُزْمعهُ
تأبى المطامعُ إلاَّ أن تُجَشِّمه ... للرزق كَدًّا، وكم مِمَّن يُوَدِّعهُ
وما مُجاهدة الإنسان توصله ... رزقاً، ولا دعة الإنسان تَقطعه
والله قسَّمَ بين الخلق رزْقهُمُ ... لم يخلق الله مخلوقاً يُضيِّعُهُ
لكنهم مُلئوا حرصاً فلست ترى ... مُسترزقاً، وسوى الغايات يقنعهُ
والسعي في الرزق والأرزاق قد قُسمت
بغيٌ، ألا إن بغي المرء يصرعُهْ

والدهر يعطي الفتى ما ليس يطلبه ... يوماً، ويمنعه من حيث يُطمِعُهُ
أستودع الله في بغداد لي قمراً ... بالكرخ من فلك الإزرار مَطلعهُ
ودَّعتُـه، وبـودِّي لـو يـودعنـي ... صَفـوُ الحيـاة وأنـي لا أودعـه
وكـم تَشفَّـع أنـي لا أفـارقـهُ ... وللضـرورات حـالٌ لا تشفِّعُـه
وكم تشبث بي عند الرحيل ضحىً ... وأدمعـي مُستهـلاَّتٌ وأدمعُـهُ
أُعطيتُ ملكاً ولم أُحسِنْ سياستهُ ... كذاك من لا يسوس الملك يُخلَعُهُ
ومن غدا لابساً ثوب النعيم بلا ... شكـر الإلـه، فعنـه اللهُ ينـزعـهُ
اعتضتُ عن وجد خلِّي بعد فرقته ... كـأسـاً أُجَـرَّع منهـا مـا أُجَـرَّعُـهُ
كم قائل ليَ ذنب البين قلت له ... الذنب والله ذنبي لست أدفعهُ
هلا أقمتُ فكان الرُّشد أجمعه ... لو أنني يوم بان الرشد أتبعُهُ
إنـي لأقطـع أيـامـي وأنفـذهـا ... بحسـرة منـه فـي قلبـي تُقطِّعُـهُ
بِمَـنْ إذا هجـعَ النُّـوَّامُ بـتُّ لـه ... بلوعةٍ منه لَيلِي لستُ أهجعهُ
لا يطمئن لجنبي مضجعٌ، وكذا ... لا يطمئن له مُذْ بنتُ مضجعُهُ
ما كنت أحسب أن الدهر يفجعني ... بـه، ولا أن بِـيْ الأيـامُ تَفْجِعُـهُ
حتى جرى الدهر فيما بيننا بيدٍ ... عسـراء تمنعنـي حظِّـي وتمنعـهُ
بالله يا مَنْزِل القصف الذي دَرَستْ ... آثـاره وعفـت مـذ غبـتُ أربُعـهُ
هل الزمان معيدٌ فيك لذَّتنا؟ ... أم الليالي التي أمْضَتْهُ تُرْجِعُهُ
في ذمَّة الله من أصبحتَ منزله ... وجاد غيثٌ على مغناك يمرعهُ
مـن عنـده لـيَ عهـدٌ لا يُضَيِّعُـهُ ... كمـا لـه عهـد صـدقٍ لا أُضيِّعُـهُ
ومـن يصـدع قلبـي ذكـره، وإذا ... جرى على قلبه ذكري يُصَدِّعُهُ

لأصبرَنَّ لِدهرٍ لا يمتعني ... به، ولا بيَ في حالٍ يُمتِّعُهُ
علماً بأن اصطباري معقبٌ فرجاً ... وأَضْيَق الأمر إن فكَّرت أوسَعُهُ
عَلَّ الليالي التي أضنتْ بفرقتنا ... جسمي ستجمعني يوماً وتجمعُهُ
وإن تنلْ أحداً منَّا منيته ... فما الذي بقضاء الله يَصْنَعُهُ

محبٌ يحب الفراق

مـن لـم يـذق مـرارة الفـراق لـم يـدر مـا حـلاوة التـلاقـي

وقبل أن نغادر ساحة الفراق، ونمسح دموع الوداع استمع إلى هذا الشاعر الذي فهم من الوداع فهماً آخر، ونظر إلى ساعة الفراق نظراً مخالفاً فهو يرى أن ساعة الفراق جميلة، ولحظات الوداع مباركة، وأنه متى نوى الفراق والوداع التهب فؤاده وفؤاد مودِّعه وجزع قلبه وقلب مُفَارقه، فيهرعون من الوداع إلى اللقاء ومن الفراق إلى العناق، وقد يكون في ذلك العناق واللقاء ما يقوي ارتباط بعضها ببعض وتركهما للفراق وهروبهما من الغياب:

مُتِّعـا بـاللقـاء يـومَ الفـراقِ مُستجيـرَيْـنِ بـالبكـا والعنـاقِ
فـأظـلَّ الفِـراقُ فـالتقيـا فيـ ـه فـراقـاً أتـاهُمـا بـاتِّفـاقِ
كيف أدْعو على الفِراقِ بحتْفٍ وغـداة الفـراقِ كـان التـلاقـي

وهذا الشاعر فخري أبوالسعود من شعراء مجلة الرسالة المشهورين يكتب قصيدة يمتدح فيها البين، ويشيد فيها بالفراق، وقد علَّل لذلك بتعليلات لطيفة للغاية، وهي بعنوان البعاد:

اه ما أعذَبَ البعادَ وإن أز رَى عليه من قبلِنا العاشقونا
إنني أشتهي البعاد زمانا مثلما أشتهي التواصل حينا
لا أُحبُّ اللقاء عهداً مقيما مستمراً به نُقضِّي السنينا
ما ألَذَّ الهوى لقاً ووداعاً وكتاباً أدَّى التحايا أمينا
إن هذا البعادَ يُذكي بي الحـبَّ ويُحْيي ولائي المكنونا

فأُفَدِّيكِ في النوى بحياتي حيثما تُصبيحين أو تُمسينا
وأحيِّيـك كلمـا ذكَّـرتْنيـ ـك رياضٌ رفَّتْ علينا غصونا
وأرى أن ودَّنا يعبر السهـ ـل ويَرْقَى الربا ويطوى الحزونا
إن هذا البعاد يبعث بالأشـ ـواق حَرَّى ويستجيش الحنينا
ويُعيد العذابَ من ذكرياتي وقديماً من عهدنا ودفينا
ويثير المنى بنفسي ولن ألـ ـقى بأسمى المنى سواك قمينا
أتمنىٰ اللقا بيوم لنا أر جع فيه إليك أو ترجعينا
أتمنى اللقا وفيك وفاءٌ باتَ عندي بأن تَبرِّي ضمينا
حُبُّنا من صفاته أنه بَرٌّ وثيق الذمام يعلو الظنونا
وأحَبُّ الأيام عنديَ ما أرْ قُبُ فيه لقاءك الميمونا
أنْفِقُ العمرَ مسرفاً فإذا أقـ ـبَلَ يومُ اللقاء كنتُ ضنينا
كلَّ حين لنا لقاءٌ سعيدٌ ووداع أطوي عليه شجونا
وتزيدين في البعاد جمالاً ورواء وبهجة وفتونا
وتزيدين في الشمائل إينا ساً وعطفاً كما أُحبُّ ولينا
وتزيدين كل حين سموًّا وعلوًّا فَاتَ الذرا والقنونا
أنْتِ كنز من المحاسن أُخفيـ ـه نفيساً عن ناظريَّ ثمينا
كي أراه إن عُدتُ أبغيه قَدْ زا دَ جمالاً يسبي النهى والعيونا
كـلَّ يـوم أُجـدِّد البُعـ ـد وأُحْيي منه فنوناً فنونا
فكأني عشقتُ ألفاً ومازلـ ـتُ الفتى الوافيَ الذي تعرفينا
ما أحَبَّ الهوى افتقاداً ووجدا ناً وقرباً حيناً وبعداً شَطُونا

من أخبار المسافرين (٢١)

مسافر يترك السفر عطفاً على زوجته

أراد أعرابي أن يسافر فأوصى امرأته قائلاً :

عُـدِّي السنيـن لغيبتـي وتصَبَّـري ... وذري الشهـورَ فـإنهـنَّ قِصـارُ

فقالت له :

اذكـر صبـابتنـا إليـك وشـوقنـا ... وارحـم بنـاتـك إنهـن صغـار

فأقام وترك السفر .

وقال آخر :

ولمـا تبـدّت للـرحيـل جمـالنـا ... وجدَّ بنا سيرٌ وفاضت مدامعُ

تبدّت لنا مذعورة من خبائها ... وناظرها باللؤلؤ الرطب لامعُ

أشارت بأطراف البنان وودَّعت ... وأومَتْ بعينيها متى أنت راجعُ

فقلت لها والله ما من مسافر ... يسير ويدري ما به الله صانعُ

فشالت نقاب الحسن من فوق وجهها ... فسالـت من الطـرف الكحيل مدامعُ

وقالت إلـهي كن عليه خليفة ... فيارب ماخابت لديك الودائعُ

آيات للتدبر والتفكر

﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾ ﴾

﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْ ۚ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٧٠﴾ وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلرِّزْقِ ۚ فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُوا۟ بِرَآدِّى رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَآءٌ ۚ أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٧١﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ ۚ أَفَبِٱلْبَـٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٢﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٧٣﴾ فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٤﴾ ﴾

[سورة النحل]

وداع لا رجعة بعده

وهذا نوعٌ من أنواع الوداع، ولكنه وداع من نوعٍ آخر؛ إنه الوداع الذي لا رجعة بعده، ولا أمل في اللقاء معه، وكم من حبيب ودَّع حبيبه إلى الأبد، وقريب ودَّع قريبه على غير أمل في اللقاء.

إذا كان من أمر الوداع الذي يرجى بعده اللقاء ما رأينا من اللوعة والألم وتفتت الأكباد وحرقة الفؤاد، فكيف بمن يودّع حبيبه على غير أملٍ من لقائه ولا رجاء في رؤيته بعد ذلك إلاَّ أن يجمع الله تعالى بينهم في دار النعيم. جعلنا الله وإياكم وجميع من ودعناه من أهلنا ممن يفوز بها.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ كُلُّ ٱمْرِئٍۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴿٢١﴾﴾ [الطور: ٢١].

وإليك، أخي المسافر، بعض قصائد الوداع أو ما يسمى بالرثاء، وقد أوردتها لعدَّة اعتبارات منها: التذكر والاعتبار؛ فإن المسافر يعلم أنه سيكون في يوم من الأيام خبراً من الأخبار، وقصة وجدت على مسرح الحياة، ثم أُسْدِل عليها الستار، فيدفعه ذلك إلى تقديم ما ينفعه والاستعداد لرحيله.

سل الأيام ما فعلت بكسرى ... وقيصر والقصور وساكنيها
أما استدعتهم للموت طُرَّاً ... فلم تَدَع الحليم ولا السفيها
دنت نحو الدنيِّ بسهم خطب ... فأصمته وواجهت الوجيها
أما لو بيعت الدنيا بفلسٍ ... أَنِفتُ لعاقل أن يشتريها

ومنها: أن الإنسان إذا خلّف بعده السمعة الحسنة والذكر الطيب فهو

في الحقيقة لم يمت. فالذكر للإنسان عمرٌ ثان.

ومنها: أن قصائد الرثاء أو الوداع الأخير هي أصدق ما يمثل العاطفة الإنسانية الجياشة وأقوى ما يفصح عن خلجات الضمير، وأعماق الأفئدة.

ضحايا القطار

هذه قصيدة لشوقي يرثي فيها طائفة من شباب مصر سافروا لتلقي العلم في جامعات أوروبا فاصطدم القطار الذي يقلهم من أرض إيطاليا، فقتل أحد عشر طالباً، وجيء بهم إلى مصر، فاستقبلت جثثهم استقبالاً رهيباً، واشتركت في جنازتهم جميع طوائف البلاد، وزاد في هول هذا المصاب أنه حدث إبان اشتعال الثورة في البلاد سنة ١٩٢٠م.

ألا في سبيل الله ذاكَ الدمُ الغالي ... وللمجد ما أبقى من المثل العالي
وبعضُ المنايا همَّةٌ من ورائها ... حياةٌ لأقوامٍ، ودُنيا لأجيال
أعَيْنَيَّ، جودا بالدموع على دمٍ ... كريمِ المُصَفَّى من شباب وآمال
تناهَتْ به الأحداثُ من غُربةِ النَّوَى ... إلى حادثٍ من غُربةِ الدهرِ قتّال
جرى أرجُوانياً، كُمَيْتاً، مُشَعْشَعاً ... بأبيضَ من غسْل الملائِكِ سَلْسَال
ولاذ بقُضبانِ الحديدِ شهيدُه ... فعادَتْ رَفيفاً من عيونٍ وأطلال
طوى الغربَ نحو الشرقِ يعدو سُلَيْكُهُ ... بمضْطَرِبٍ في البرِّ والبحرِ، مِرْقال
يُسِرُّ إلى النفسِ الأسَى غيرَ هامسٍ ... ويُلقي على القلبِ الشَّجَى غير قَوَّال
سماءُ الحِمَى بالشاطِئينِ وأرضُه ... مناحةُ أقمارٍ، ومأتَمُ أشبال
ترى الريح تدري: ما الذي قد أعادها ... بساطاً، ولكن من حديدٍ وأثقال؟
يُقِلُّ من الفتيان أشبالَ غابةٍ ... غُداةً على الأخطار رُكَّابَ أهوال
ثَنَتْهُ العوادي دونَ (أودِينَ)، فانثنَى ... بآخَرَ من دُهْمِ المقادير ذَيَّال
قد اعتنقا تحت الدّخانِ كما التقَى ... كميّان في داجٍ من النقْع مُنجال
فسبحانَ من يرمي الحديدَ وبأسَه ... على ناعم غَضٍّ من الزهر مِنهال

ومن يأخذُ السارين بالفجرِ طالعاً طلوعَ المنايا من ثنيَّات آجال
ومن يجعلُ الأسفار للناس هِمّةً إلى سفرٍ يَنْوُونَه غيرَ قُفَّال
فهل عطفتكم رنة الأهل والحِمَى وضجة أترابٍ عليهم وأمثال؟
لئن فات مصراً أن يموتوا بأرضها لقد ظفروا بالبعث من تُرْبها الغالي

أبوالحسن الأنباري يرثي وزير عز الدولة

وقال أبوالحسن الأنباري، المتوفى عام ٢٣٨هـ، يرثي أباطاهر بن بقية وزير عز الدولة لما قتل وصلب، وقد كان جواداً كريماً محبوباً عند الناس، وهي من أعظم المراثي، ولم يسمع بمثلها في مصلوب حتى إن عضد الدولة الذي صلبه تمنى أن لو كان هو المصلوب، وقيلت فيه:

علوٌّ في الحياة وفي الممات ... لحقٌّ تلك إحدى المعجزاتِ
كأن الناس حولك حين قاموا ... وُفودُ نداك أيام الصِّلاتِ
كأنك قائم فيهم خطيباً ... وكلهـــمُ قيـــامٌ للصَّـــلاَة
مدَدتَّ يديك نَحْوَهُمُ احْتفاءً ... كمـدِّهمـا إليهـم بـالهبـات
ولما ضاق بَطن الأرض عن أن ... يَضمّ علاك من بعد الوفاة
أصاروا الجو قبرك واستعاضوا ... عن الأكفان ثوب السافيات
لعِظْمِك في النفوس تبيت تُرعـ ... ـى بحرَّاس وحُفاظ ثقات
وتوقد حولك النيران ليلاً ... كذلك كنت أيامَ الحياة
ركبتَ مطية من قبل زيدٍ ... علاها في السنين الماضيات
وتلـك قضيـةٌ فيهـا تـأسٌّ ... تباعد عنك تعييرَ العدَاة
ولم أر قبل جذعك قط جذعاً ... تمكن من عناق المكرمات
أسأت إلى النوائب فاستثارت ... فأنتَ قتيل ثأْرِ النائبات
وكنت تجيرنا من صرف دهر ... فعاد مُطالباً لك بالترات
وصيَّرَ دهرك الإحسان فيه ... إلينـا مـن عظيـم السيئـات
وكنت لمعشرٍ سعداً فلما ... مضيت تَفرقوا بالمحسنات

عليل باطن لك في فؤادي يخفف بالدموع الجاريات
ولو أني قدَرْت على قيام بفرضك والحقوق الواجبات
ملأت الأرض من نظم القوافي ونحت بها خلاف النائحات
ولكني أُصبِّر عنك نفسي مخافة أن أُعدّ من الجناة
ومالك تربة فأقولُ تسقى لأنك نُصبَ هطل الهاطلات
عليك تحية الرحمن تَتْرَى برحمات غواد رائحات

عائشة التيمورية تودّع ابنتها

وهذه عائشة هانم التيمورية المتوفاة سنة ١٣٠٠هـ ترثي ابنتها. وهي قصيدة مبكية حقًّا، ومؤثرة للغاية. كيف لا وهي تصور موقف الأم الحنون، وهي تفقد فلذة كبدها، وأحب شيء إلى قلبها حيث تقول:

سُتِرَ السنا وتحجبت شمس الضحى ... وتغيبت بعد الشروق بدور
ومضى الذي أهوى وجرعني الأسى ... وغدت بقلبي جذوة وسعير
يا ليته لما نوى عهد النوى ... وافى العيون من الظلام نذير
ناهيك ما فعلت بماء حشاشتي ... نار لها بين الضلوع زفير
لو بُث حزني في الوَرَىٰ لم يُلْتَفَتْ ... لمصاب قيس والمصاب كبير
طافت بشهر الصوم كاسات الردى ... سحراً وأكواب الدموع تدور
فتناولت منها ابنتي فتغيرت ... وجنات خدٍّ شانها التغيير
فَذَوَتْ أزاهير الحياة بروضها ... وانقَدَّ منها مائس ونضير
لَبِستْ ثياب السقم في صغر وقد ... ذاقت شراب الموت وهو مرير
جاء الطبيب ضُحى وبشر بالشفا ... إن الطبيب بطبه مغرور
وصف التجرع وهو يزعم أنه ... بالبرء من كل السقام بشير
فتنفست للحزن قائلة له ... عَجِّل ببرئي حيث أنت خبير
وارحم شبابي إن والدتي غدت ... ثكلى يشير لها الجوى وتشير
وارأف بعين حُرِّمت طيب الكرى ... تشكو السهاد وفي الجفون فتور
لما رأت يأس الطبيب وعجزه ... قالت ودمع المقلتين غزير
أُمَّاه قد كَلَّ الطبيب وفاتني ... مما أُؤمل في الحياة نصير

أمـاه قـد عـز اللقـاء وفـي غـد ... سترين نعشي كالعروس يسير
وسينتهي المسعى إلى اللحد الذي ... هو منزلي وله الجموع تصير
قولي لرب اللحد رفقاً بابنتي ... جاءت عروساً ساقها التقدير
وتجلـدي بـإزاء لحـدي بُـرهـةً ... فتـراك روح راعهـا المقـدور
أمـاهُ قـد سلفـت لنـا أُمْنيَّـة ... يـا حسنهـا لـو سـاقهـا التيسير
كانت كأحلام مضت وتخلفت ... مُذ بان يوم البين وهو عسير
عـودي إلـى ربـع خـلا ومـآثـر ... قـد خلفـت عنـي لهـا تـأثيـر
صوني جهاز العرس تذكاراً فلي ... قد كان منه إلى الزفاف سرور
جرت مصائب فرقتي لك بعد ذا ... لبـس السـواد ونُفـذ المسطـور
والقبر صار لغصن قدي روضة ... ريحـانهـا عنـد المـزار زهـور
أمـاه لا تنسـي بحـق بُنـوَّتـي ... قبـري لئـلا يحـزن المقبـور
بنتاه يا كبدِي ولوعة مهجتي ... قـد زال صفـو شـانـه التكـديـر
لا توص ثكلى قد أذاب فؤادها ... حـزن عليـك وحسـرة وزفيـر
أبكيـك حتـى نلتقـي فـي جنـة ... بـريـاض خلـد زينتهـا الحـور
إن قيل «عائشة» أقول لقد فني ... عيشـي وصبـري ـ والإلـه خبيـر
ولهي على «توحيدة» الحسن التي ... قد غاب بدر جمالها المستور
قلبي وَجَفني واللسان وخالقي ... راض وبـاك شـاكـر وغفـور
متعت بالرضوان في خلد الرضا ... مـا ازَّينـتْ لـك غـرفـة وقصـور

البارودي يبكي زوجته في الغربة

وهذا البارودي يرثي زوجته وقد ورد إليه نعيها وهو في غربته بـ(سرنديب) حيث نُفي هناك عقب الثورة العرابية في صفر سنة ١٣٠٠هـ، وسرنديب هي جزيرة من أراضي الهند في جنوب بيهار. فانظر إلى البارودي الذي كان يكتوي بنار الغربة ويحن إلى أهله وبلده ثم يفاجأ بخبر وفاة زوجته التي كان يحبها حبًّا شديداً وهو ما تعبر عنه هذه المرثية العظيمة المؤثرة ومنها:

أَيَدَ المَنُونِ قَدَحْتِ أَيَّ زِنادِ ... وأَطَرْتِ أيَّةَ شُعْلَةٍ بِفُؤادِي
أَوْهَنْتِ عَزْمِي وهْوَ حَمْلَةُ فَيْلَقٍ ... وحَطَمْتِ عُودِي وهْوَ رُمْحُ طِرَادِ
لم أدْرِ هَلْ خَطْبٌ أَلَمَّ بِسَاحَتِي ... فأَنَاخَ، أَمْ سَهْمٌ أَصَابَ سَوَادِي؟
أَبْلَتْنِيَ الحَسَراتُ حَتَّى لَمْ يَكَدْ ... جِسْمِي يَلُوحُ لأَعْيُنِ العُوَّادِ
لا لَوْعَتِي تَدَعُ الفُؤَادَ، ولاَيَدِي ... تَقْوَى عَلَى رَدِّ الحَبِيبِ الغَادِي
يا موت فِيمَ فَجَعْتَنِي بِحَلِيلَةٍ؟ ... كانَتْ خُلاصَةَ عُدَّتِي وعَتادِي
إن كنتَ لم تَرْحَمْ ضَنَايَ لِبُعْدِها ... أفَلا رَحِمْتَ من الأسَى أَوْلادي؟
أفْرَدْتَهُنَّ فَلَمْ يَنَمْنَ تَوَجُّعاً ... قَرْحَى العُيُونِ رَوَاجِفَ الأكْبادِ
أَلْفَيْنَ دُرَّ عُقُودِهِنَّ، وصُغْنَ مِنْ ... دُرِّ الدُّمُوعِ قَلائِدَ الأجْيادِ
يَبْكِينَ مِنْ وَلَهٍ فِراقَ حَفِيَّةٍ ... كانَتْ لَهُنَّ كَثِيرَةَ الإِسْعادِ
فخُدُودُهنَّ من الدُّمُوعِ نَدِيَّةٌ ... وقُلوبُهُنَّ من الهُمومِ صَوَادِي
أسليلَةَ القَمَرَيْنِ! أيُّ فَجِيعةٍ ... حَلَّتْ لِفَقْدِكِ بَيْنَ هذا النَّادِي؟
لو كان هذا الموتُ يَقْبَلُ فِدْيَةً ... بالنَّفْسِ عَنْكِ لَكُنْتُ أوَّلَ فادِي

لكنَّهـا الأقْـدارُ لَيْـسَ بِنَـاجِـعٍ ... فيهـا سـوى التسليـم والإخْـلادِ
هيهات بَعْدَكِ أنْ تَقَرَّ جَوانِحِي ... أسَفـاً لِبُعْـدِكِ أو يلِيـنَ مِهـادي
ولَهِي عَلَيْكِ مُصاحِبٌ لِمَسيرَتِي ... والـدمْـعُ فيـك مُـلازِمٌ لِـوِسَـادِي
فإذا انْتَبَهْتُ فأنْتِ أوَّلُ ذِكْرَتِي ... وإذا أَوَيْـتُ فـأنْـتِ آخـرُ زادي
تَعِسَ امْرُؤٌ نَسِيَ المعَادَ ومَا دَرَى ... أنَّ المَنُـونَ إليْـه بـالمِـرْصَـادِ
فَاسْتَهْد «يامحمودُ» رَبَّكَ، والتَمِسْ ... مِنْهُ المعُونَةَ، فَهْوَ نِعْم الهادِي
واسأَلْهُ مَغْفِرةً لِمَنْ حَلَّ الثَّرَى ... بالأمْسِ، فَهْوَ مُجيبُ كُلِّ مُنادِي
هي مُهْجَةٌ ودَّعْتُ يوْمَ زِيالِهَا ... نَفْسِـي، وعِشْـتُ بِحَسْـرَةٍ وبِعـادِ
تالله ما جَفَّت دُمُوعيَ بَعْدَمَا ... ذَهَبَ الرَّدَى بِكِ يا بْنَةَ الأمْجَادِ
لا تَحْسَبِينِي مِلْتُ عَنْكِ مَعَ الهَوَى ... هَيْهَاتَ، ما تَرْكُ الوَفاءِ بِعادِي
قدْ كِدْتُ أَقْضِي حَسْرَةً لَوْ لمْ أكُنْ ... مُتَـوَقِّعـاً لُقْيَـاكِ يـوْمَ مَعَـادي
فَعَلَيْـكِ مـن قلْبـي التَّحِيَّـةُ كُلَّمَـا ... نـاحَـتْ مُطَـوَّقَـةٌ علـى الأغْـوادِ

ولـــدي!!

كنت أتصور أن الشعر وحده هو الذي يملك هزَّ المشاعر، وإثارة الأحاسيس وتصوير دقائق النفس، وخلجات الضمير، فلما قرأت هذه المقالة قلت: أشهد أن من النثر ما يتفوق على الشعر. إن الكاتب البارع والإنسان البليغ يستطيع أن يعبر عما في نفسه وما يختلج في مشاعره وينقل تجربته إلى غيره فيجعلهم يعيشونها معه وليس شرطاً أن تكون في قالب من الشعر.

قرأت هذه المقالة للأديب المسلم العربي المتألِّق أحمد حسن الزيات ـ رحمه الله ـ أستاذ الكلمة وقبطان العبارة وملك الأسلوب، صاحب مجلة الرسالة الرائدة، ذلك الأديب المسلم الغيور الذي كانت له كتابات إسلامية رائعة أسأل الله أن يأجره عليها، فقلَّما تجد في عصره أعذب من أسلوبه، أو أجمل من مقالاته، أو أصدق من انفعالاته، إنه عَلَمٌ شامخ في فن الكتابة العربي الأصيل السهل الممتنع، على العموم ليس هذا ميداناً للحديث عن الزيات ـ رحمه الله ـ ولكنني قرأت له هذه المقالة التي يرثي فيها ابنه «رجاء» الذي جاءه على شوق وطول انتظار ثم اختطفته المنايا وهو في عمر الزهور كما يقال، لن أطيل في الكلام عن المقالة ولكني أذكر لك تجربتي معها ولا أدري ربما يكون تأثِّري البالغ بها لأنني بفضل الله تعالى رجلٌ عاطفي إلى حدٍّ كبير حتى إنني لو رأيت هِرّة في الطريق دهستها سيارة أو تتلوّىٰ من الألم فإني لا أملك دموعي فكيف بمقال كهذا المقال الذي يرثي فلذة الكبد، ويصور مرارة اللوعة على فقد

الولد. والذي نفسي بيده إنني حينما قرأتها أخذت أنتفض وأبكي وأصيح وكأنني مجنون أو أُصبتُ بمصيبة كبيرة أو نزلت بي نازلة عظيمة، فأتركك الآن مع البيان الساحر، والعبارة الصادقة، والكلمة المؤثِّرة.

«ولدي» هكذا وبهذا العنوان كتب مقالته الأديب البارع والأستاذ اللامع أحمد حسن الزيات بعد أن وضع بجوار العنوان صورة لولده رجاء رحمهما الله تعالى:

يا قارئي أنت صديق فدعني أُرِقْ على يديك هذه العبرات الباقية! هذا ولدي كما ترى، رُزِقته على حال عابسة كاليأس، وكهولة بائسة كالهرم، وحياة باردة كالموت، فأشرق في نفسي إشراق الأمل، وأورق في عودي إيراق الربيع، وولّد في حياتي العقيمة معاني الجدّة والاستمرار والخلود!

كنت في طريق الحياة كالشارد الهيمان، أنشد الراحة ولا أجد الظل، وأُفيض المحبة ولا أجد الحبيب، وألبس الناس ولا أجد ما ألبس، وأكسب المال ولا أجد السعادة وأعالج العيش ولا أدرك الغاية!! كنت كالصوت الأصم لا يُرجِّعه صدى، والروح الحائر لا يُقرُّه هدى، والمعنى المبهم لا يحدده خاطر!! كنت كالآلة أنتجتها آلةٌ واستهلكها عمل، فهي تخدم غيرها بالتسخير، وتميت نفسها بالدؤوب، ولا تحفظ نوعها بالولادة، فكان يصلني بالماضي أبي، ويمسكني بالحاضر أجلي، ثم لا يربطني بالمستقبل رابط من أمل أو ولد. فلما جاء (رجاء) وجدتُني أُولد فيه من جديد؛ فأنا أنظر إلى الدنيا بعين الخيال، وأبسم إلى الوجود بثغر الأطفال، وأضطرب في الحياة اضطراب الحي الكامل يدفعه من ورائه طمع، ويجذبه من أمامه طموح! شعرت بالدم الحار يتدفق نشيطاً في

جسمي، وبالأمل القوي ينبعث جديداً في نفسي، وبالمرح الفتي يضج لاهياً في حياتي، وبالعيش الكئيب تتراقص على حواشيه الخضر عرائس المنى! فأنا ألعب مع رجاء بلُعبه، وأتحدث إلى رجاء بلغته، وأتبع عقلي هوى رجاء فأدخل معه دخول البراءة في كل ملهى، وأطير به طيران الفراشة في كل روض، ثم لم يعد العمل الذي أعمله جديراً بعزمي، ولا الجهد الذي أبذله كفاءً لغايتي، فضاعفت السعي، وتجاهلت النصب، وتناسيت المرض، وطلبت النجاح في كل وجه! ذلك لأن الصبي الذكي الجميل أطال حياتي بحياته، ووسَّع وجودي بوجوده، فكان عمري يغوص في طوايا العدم قليلاً قليلاً ليمد عمره بالبقاء، كما يغوص أصل الشجرة في الأرض ليمد فروعها بالغذاء.

شغل رجاء فراغي كله، وملأ وجودي كله، حتى أصبح شغلي ووجودي! فهو صغيراً أنا، وأنا كبيراً هو؛ يأكل فأشبع، ويشرب فأرتوي، وينام فأستريح، ويحلم فتسبح روحي وروحه في إشراق سماوي من الغبطة لا يوصف ولا يحد!!

ما هذا الضياء الذي يشع في نظراتي؟ ما هذا الرجاء الذي يشيع في بسماتي؟ ما هذا الرضا الذي يغمر نفسي؟ ما هذا النعيم الذي يملأ شعوري؟ ذلك كله انعكاس حياة على حياة، وتدفق روح في روح، وتأثير ولد في والد!؟

ثم انقضت تلك السنون الأربع! فَطوِّحتْ الواحة وأوحش القفر، وانطفأت الومضة وأغطش الليل، وتبدد الحلم وتجهم الواقع، وأخفق الطب ومات رجاء!!

يا جبار السموات والأرض رُحماك!! أفي مثل خفقة الوسنان تبدّل الدنيا غير الدنيا، فيعود النعيم شقاء، والملاء خلاء، والأمل ذكرى؟! أفي مثل تحية العجلان يصمت الروض الغَرِد، ويسكن البيت اللاعب، ويقبح الوجود الجميل؟! حنانيك يا لطيف! ما هذا اللهيب الغريب الذي يهب على غشاء الصدر ومراق البطن فيرمض الحشا ويذيب لفائف القلب؟

إن قلبي ينزف من عيني عبرات بعضها صامت وبعضها مُعول! فهل لبيان الدمع ترجمان، ولعويل الثاكل ألحان؟ إن اللغة كوْن محدود فهل تترجم اللانهاية؟ وإن الآلة عصب مكدود فهل تعزف الضرم الواري؟ إن من يعرف حالي قبل رجاء وحالي معه يعرف حالي بعده! أشهد لقد جزعت عليه جزعاً لم يغن فيه عزاء ولا عظة! كنت أنفر ممن يعزيني عنه لأنه يهينه، وأسكن إلى من يباكيني عليه لأنه يُكْبِره، وأستريح إلى النادبات يندبن الكبد الذي مات، والأمل الذي فات، والملك الذي رُفع!

لم يكن رجاء طفلاً عادياً حتى أملك الصبر عنه وأطيع السلوان فيه؛ إنما كان صورة الخيال الشاعر ورغبة القلب المشوق! كان وهو في سِنِّهِ التي تراها يعرف أوضاع الأدب، ويدرك أسرار الجمال، ويفهم شؤون الأسرة، ويؤلف لي (الحواديت) كلما ضمني وإياه مجلس السمر! كان يجعل نفسه دائماً بطل (الحدوته) فهو يصرع الأسود التي هاجمت الناس من حديقة الحيوانات، ويدفع (العساكر) عن التلاميذ في أيام المظاهرات، ويجمع مساكين الحي في فناء الدار ليوزع عليهم ما صاده ببندقيته الصغيرة من مختلف الطير!

والهف نفسي عليه يوم تسلل إليه الحِمام الراصد في وعكة قال الطبيب

إنها (البرد) ثم أعلن بعد ثلاثة أيام أنها (الدفتريا)! لقد عبث الداء الوبيل بجسمه النضر كما تعبث الريح السموم بالزهرة الغضة! ولكن ذكاءه وجماله ولطفه ما برحت قوية ناصعة، تصارع العدم بحيوية الطفولة!!.

والهف نفسي عليه ساعة أخذته غصة الموت، وأدركته شهقة الروح، فصاح بملء فمه الجميل: (بابا! بابا!) كأنما ظن أباه يدفع عنه ما لا يدفع عن نفسه!

لنا الله من قبلك ومن بعدك يا رجاء، وللذين تطولوا بالمواساة فيك السلامة والبقاء.